(التعريف والنقد)

الشرق والغرب رفيقا الدرب

عند رِنْفْرُوْ

(مؤلف معروض)(*) الدكتور عبد الرزاق قدورة

نرمز بالدرب إلى البقعة التي انطلق منها أجداد الناطقين اليوم باللغات الهندية الأوروبية أي الأوروبيين والهنود والفرس وأخوانهم . وهذه البقعة هي ديار بكر أو تكاد تكون . وهذا رأي كولن رنفرو ، أستاذ علم الآثار في جامعة كمبردج ، وعميد كلية يسوع فيها .

منذ اكتشاف القرابة بين لغات فارس والهند وأوروبا ، والناس يتساءلون عن أصلها . والرأي الشائع هو أن أم هذه اللغات جميعاً لغة كان يتكلمها بدو خيَّالة كانوا يسكنون في شمال البحر الأسود في مطلع عصر البرنز . وغزا هؤلاء الفرسان جيرانهم شرقاً وغرباً ، وفرضوا لغتهم التي تشعبت ، على مر السنين ، إلى اللغات الهندية الأوروبية المعروفة اليوم . هذا الرأي الشائع يخالفه عدد من العلماء يستند بعضهم إلى علم الآثار (ومنهم رِنْفرو) ، وآخرون إلى علم اللسان ، وغيرهم إلى علم الحياة . والمُؤَلَّف المعروض ، وهو : « علم الآثار واللسان : معضلة الأصول الهندية الأوروبية » يدافع عن هذا الرأي الجديد . وهناك مُؤَلَّف آخر ينظر في الأمر نفسه ، هو : « البحث عن الهنود الأوروبيين : اللسان وعلم الآثار والأساطير » ، بقلم مَالُوْرِيْ . وسوف نستعين به في هذا العرض ، كما

(*) Archaeology and Language. By Colin Renfrew. Penguin Book, 1989.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٢/٥٦ نستعين بمقالات نشرها رِنْفرو وآخرون في مجلة الأمريكي العلمي « سَيَنْتِفِيكْ أَمِرِيكَانْ » .

رأي رنفرو يعارضه كثيرون . ونشرت مجلة « نِيْتْشَرْ » حديثاً بحثاً دَرَسَ أَسْنانَ جِيادٍ عاشت في شمال البحر الأسود قبل بضعة آلاف من السنين . وقد تبين أَنَّ على الأسنان أَثَرَ حَكٍّ اللجام بها ، أي أن هذه الجياد كانت مُرَوَّضَةً مركوبة ، وأن أصحابها كانوا فرساناً يمكن أن يكونوا الغزاة أجداد الأوروبيين الذين يفترضهم الرأي الشائع الذي يسعى رنفرو إلى نقضه .

رنفرو يقول إن هؤلاء الأقدمين أتوا من بلاد الأناضول التي كانت قد انتشرت فيها الزراعة قادمة من الهلال الخصيب . وانهم لم يغزوا البلاد الجديدة التي انتقلوا إليها ، أي أوروبا وفارس والهند ، بل انتقلوا إليها تدريجياً كلما دعتهم الحاجة إلى أراضٍ زراعية جديدة بسبب ازدياد أعدادهم .

القرابة بين اللغات الهندية الأوروبية واضحة من تشابه كلماتها ، ومنها الأعداد . فالواحد هو « أَنْ » بالفرنسية ، و« وَنْ » بالانكليزية ، و« آيْنْسْ » بالألمانية ، و« اونوس » في اللاتينية ، و« هيس » في اليونانية ، و« ايكاس » في السنسكريتية . ويصح مثل ذلك في الأعداد الأخرى . ولا شبه بين هذه الكلمات وبين الكلمة العربية المقابلة أي « واحد » . وليست القرابة مقتصرة على الكلمات بل هي أيضاً ظاهرة في القواعد واللفظ . وتدل الدراسة على أن اللغات الهندية الأوروبية تنقسم إلى أسر منها الرومانسية التي انحدرت من اللاتينية وتحوي الفرنسية ، والايطالية ، والاسبانية ، والبرتغالية ، والرومانية ، ومنها الجرمانية وتحوي الألمانية ، والنزوجية ، والدنماركية ، والسويدية ، ومنها السلافية ، وتحوي الروسية ، والبولونية ، والتشيكية ، والسلوفاكية ، والصربية الكرواتية ، والبلغارية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكل اللغات الأوروبية الحالية تنتمي إلى مجموعة اللغات الهندية الأوروبية إلا الهنغارية ، والفنلندية ، والاستونية ، والباسكية ، وأشباهها .

الاعتقاد بان الناطقين اليوم باللغات الهندية الأوروبية انحدروا من أصل واحد هو اعتقاد منبعه التشابه بين لغاتهم . ولكن لا بد لاختبار صحته من الرجوع إلى علم الآثار وعلم الحياة . وتحديدُ الأرض التي كانت موطن أجدادهم يستند إلى دراسة هذه العلوم الثلاثة معاً (أي اللسان ، والآثار ، والحياة) ، ومقارنة نتائجها بعضها ببعض . فالرجوع إلى الأصول بدراسة علم اللسان سبيله اكتشاف الكلمات المشتركة اليوم بين اللغات الهندية الأوروبية ، لأن هذه الكلمات منحدرة من اللغة الأم ، فمجموعها يؤلف اللب الذي حفظته الأيام . وبدراسة كلمات هذا اللب يمكن استنتاج الوسط الذي كان يعيش فيه الأجداد الذين كانوا ينطقون باللغة الأم . فكلمات اللب التي تسمي حيوانات أو نباتات تدل على أن هذه الحيوانات والنباتات كانت موجودة في الوسط الأصلي . فمن كلمات اللب مثلاً كلمة حصان . وهذا دليل على أن الأجداد ، والوسط الذي عاشوا فيه ، كانوا يعرفون الحصان . ولا تفيد كلمات اللب في التعرف على الوسط الأصلي فحسب ، بل إنها تدل أيضاً على الزمان . فمن كلمات اللب مثلاً كلمة عجلة مما يدل على أن الأجداد عرفوها . ولكن ليس من بينها كلمة حديد ولا كلمة برنز ، فهم اذن ما عرفوها . وهكذا يمكن استنتاج معلومات عن مكان سكنى الأجداد ، وعن زمان انتقالهم منه ، من دراسة كلمات اللب . فهم مثلاً بدؤوا بالتفرق بعد زمان ترويض الحصان وبناء العربات ولكن قبل اكتشاف الحديد والبرنز .

جاءت اللغة الأم من مسكنها الأصلي وانتشرت شرقاً وغرباً . فكيف تم هذا الانتشار ؟ إن دراسته تعطي أيضاً دلائل عن المسكن الأصلي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هناك عدة أشكال من الانتشار اللغوي . فأولها هو أن يأتي الناطقون باللغة إلى أرض غير مسكونة فيستعمروها ، وتستقر لغتهم فيها . وطبعاً هذا الشكل لا يصح في حالة اللغات الهندية الأوروبية لأن الأراضي التي انتقل إليها أجداد الناطقين بها كانت حتماً مسكونة قبل دخولهم إليها ، وما تزال بقايا من هذه الشعوب ، واللغات ، الأصلية فيها .

الذي حدث في حال الهنديين الأوروبيين هو أن لغتهم حلت محل لغات الأقوام التي انتقلوا إلى بلادها . وهذا الحلول يمكن أن يتم بأشكال مختلفة . منها أن يكون عند القادمين وسائل جديدة لتحصيل الرزق تسمح لهم بالتعايش مع السكان الأصليين ، الذين يتكسبون من وسائلهم الخاصة بهم ، دون أن يكون بين هؤلاء وأولئك تنافس على الموارد نفسها يؤدي إلى النزاع والصدام . وهناك شكل آخر تحل به لغة محل لغة ، غير شكل النجاح الاقتصادي للجدد الذي أشرنا إليه الآن ، هو الهيمنة عندما يكون عند القادمين نظام وسلاح أقوى من اللَّذَيْن عند السكان الأصليين . فعندئذ يحكم أولئك هؤلاء وتحل اللغة الجديدة تدريجياً محل اللغة الأصلية . ولكن لا بد لكي يتم ذلك من تحقق شرطين : أولهما ، كما قلنا ، هو أن يكون القادمون أقوى من القاطنين ، بالنظام والسلاح ، وثانيهما هو أن يكون للفئتين نظام اجتماعي كافٍ ليجعل أولئك حكاماً وهؤلاء محكومين . فقيام الحكم لا يفترض فقط أن يكون لدى الحكام ما يكفي من العزم للقيام بأعبائه ، بل أن يكون لدى المحكومين أيضاً ما يكفي من الرضا لتحمل أوزاره . وهذا وذاك لا يكونان إلا إذا كانت كل فئة من الفئتين منظمة تنظيماً كافياً يمكن هذه من أن تَحْكُم وتلك من أن تُحْكَم . وطبعاً هذه الطريقة في الحلول هي التي يظنها من يقولون إن أجداد الأوروبيين أتوا غازين راكبين ، وفتحوا الأرض التي يسكنونها اليوم ، وحكموا سكانها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأصـليين ، وحلت لغتهم محل لغاتهم . غير أن رنفرو ينكر ذلك ، فلا القـادمون كان عندهم سـلاح ونظام أقوى ، ولا القاطنون كانوا مُنَظَّمين ليُحْكَمـوا فقـد كانوا صـيـادين جامعين للقوت ، متسـاوين في المراتب والدرجـات . ويقـول رنفـرو ان الطبقـات في أوروبا لم تبدأ إلا في عصر البرنز . وهنـاك طبعاً شكلان آخران تحل بهما لغة محل لغة . أحدهما أن تضعف دولة ما وتنهار ، فيغزوها الذين كانوا يعيشون وراء حدودها وكانت تدفعهـم عنهـا أثناء سـلطانها ، فتحل لغاتهم محل لغاتها ، وهذا ما حدث للرومان عند انحلالهم . والشكل الثاني هو عندما تحمل التجارة لغة واحدة عـبر أقوام كثر ، فيعتمـدونهـا في تجارتهـم وتواصـلهـم بعضهـم ببعض ، ويَصْبِغُونَهـا بخصـائصهـم ، فتتولد لغة جديدة تنتشر على نطاق واسع ، وتتعـايش مع اللغـات الأصـليـة حينـاً ثم تحل محلهـا ، ومثال ذلك اللغة السواحلية التي ولدت من اللغة العربية في أفريقيا الشرقية والوسطى .

يرى رنفرو ، بعد أن ينظر في أشكال حلول لغة محل أخرى ، أن الشكل الذي يصح في حالة اللغة الهندية الأوروبية هو الشكل الأول الذي ذكرناه ، أي الشكل المستند إلى عوامل اقتصـادية وتكاثرية عندما يكون لدى القـادمين وسـائل أفضـل لاكتسـاب الرزق من وسـائل القاطنين ، فيدخلون بلادهم سلماً ، ويستثمرون موارد غير التي يستثمرها القاطنون ، فـلا يتنـازعون ولا يتصـادمون ، ولكن يتكـاثرون بسـرعة أكبر ، فتزيد أعدادهم على أعداد القـاطنين ، ولا يلبثون ، بعد انقضـاء زمن كافٍ أن يغمروهم بأعدادهم ، وتحل لغتهـم محل لغة الأصـليين . ويقول رنفرو إن الأسـلوب الجديد في كسب العيش الذي جلبـه معهـم أجداد الهنود الأوروبيين إلى البلاد التي هاجروا إليها هو الزراعة .

قبل تسعة آلاف سنة بدأت الزراعة تنتشر في أوروبا ، فصار يزرع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيها القمح والشعير ويُرَبَّى فيها الغنم والماعز . وكل هذه النباتات والحيوانات من أصل غير أوروبي . وكلها أتت من البلاد التي ولدت فيها الزراعة وتربية المواشي أي بلاد الشام والرافدين . وقد انتشرت أساليب الحياة الجديدة عندئذ هذه كما تنتشر الأمواج على سطح الماء ، أي ان الفلاحين كانوا كلما تكاثروا ، وضاقت عليهم الأرض المزروعة ، هاجروا منها واستعمروا أرضاً سواها . ذلك أن الزراعة تغذي أهلها أفضل بكثير مما يغذيهم الصيد وجمع الطعام ، فيتكاثرون أكثر من الصيادين والجامعين ، ولا تلبث الأرض أن تضيق بهم . والذين يهاجرون ، عندما يحتاجون إلى ذلك ، هم الشباب . فإذا افترضنا أن الفلاح الشاب المهاجر ينتقل من أرض والديه في أي اتجاه يرجو أن يجد فيه أرضاً خالية صالحة للزراعة ، وأن معدل انتقاله الوسطي بضعة عشر كيلو متراً ، فان حساب الاحتمال يدل على أن أمواج المهاجرين هذه تغطي أوروبا بكاملها بسرعة وسطى قدرها كيلو متر واحد في السنة . وإذا صح ذلك فإن الذين انطلقوا من ديار بكر يصل أحفادهم إلى أوروبا الشمالية بعد نحو ستين جيلاً أي الف وخمس مائة عام .

هذا طبعاً نموذج مفرط في التبسيط . والواقع أعقد منه بكثير . فالأرض التي كان ينتقل إليها المهاجرون ، إن كانت خالية من الزراعة ، فانها لم تكن خالية من الناس ، بل كان فيها الصيادون والجامعون ، وان كان هؤلاء موزعين عليها بكثافة أقل بكثير من كثافة المزارعين . ذلك ان كسب الرزق بالصيد والجمع أقل جدوى من كسبه بالزراعة ، ويتطلب من صاحبه الانتقال الدائم . فالكيلو متر المربع الواحد لا يستطيع أن يغذي وسطيًّا بالصيد والجمع أكثر من عشرة أشخاص ، بينما تستطيع الزراعة أن تغذي ، في الكيلو متر المربع الواحد ، خمس مائة شخص . ونموذج رنفرو ، كما قلنا ، يفترض أن القادمين والأقدمين يتعايشون بسلام ، لأن مواردهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مختلفة لا يتنازعون عليها ، فهؤلاء يصيدون وأولئك يزرعون ، وموجتاهم تتقدمان شيئاً فشيئاً إلى الشمال والغرب ، فيكون الصيادون هم السابقين ، والزراع هم اللاحقين . ولكن رنفرو يقبل أيضاً بأن بعض الصيادين قد يكون أدرك أن أسلوب الزراع في كسب الرزق أقل مشقة وأعظم جدوى من الصيد والجمع ، فاعتمده واستقر على أرض زراعية . وإذا صح هذا فإنه يعني أن بعض الأوروبيين الحاليين هم من سلالة سكان أوروبا الأصليين هؤلاء الذين كانوا صيادين وانقلبوا زُرّاعاً ، وليسوا من سلالة القادمين من ديار بكر . وعندئذ تكون لغات الذين ينحدرون من الأوروبيين الأصليين غير اللغات الهندية التي هي لغات سلالة القادمين . وفعلاً يجد الباحث بين اللغات الأوروبية الحالية ، أو التي لم تندثر إلا قبل ألفي سنة ، لغات ليست هندية أوروبية منها لغة الباسك التي ما تزال اليوم حية ، ولغة الاترسك الذين عاشوا حتى أيام الرومان .

نظرية رنفرو هذه ، التي تجعل نسب سكان أوروبا الحاليين ، إلاّ جَزائر قليلة ، وفارس والهند ، يرقى إلى أجداد بعيدين في ديار بكر بدؤوا انتقالهم قبل تسعة آلاف سنة تقريباً ، يُوَسِّعها رنفرو ليجعلها تصح في المنطقتين الأخريين اللتين نشأت فيهما الزراعة ، في وقت واحد تقريباً مع نشوئها في ديار بكر وهما بلاد الشام وبلاد العراقين . ذلك أنه لما كانت الفكرة الأساسية في الموضوع هي أن الزراعة أقدر من وسائل العيش التي سبقتها على إطعام أهلها ، فإنها إذن لا بد من أن تزيد أعدادهم ، فتضيق بهم الأرض ، ويضطرون إلى الهجرة باحثين عن أرض جديدة يزرعونها ، فكل منطقة تبدأ فيها الزراعة تصبح إذن بعد حين منبعاً لموجة من الناس المهاجرين . فإذا صح ذلك نتج منه . أن بلاد الشام أصبحت ، بعد أن نشأت فيها الزراعة ، وزاد أهلها عما كانوا ، منطلق هجرة إلى شبه جزيرة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العرب وشمال إفريقيا . وكذلك أن بلاد العراقين أصبحت منطلق هجرة إلى جنوب شرق آسيا وشرقها . وهذا أمر يفرضه الواقع الجغرافي والبحث عن بلاد جديدة ليس فيها زراع . ويؤيد هذا الرأي ان علم الآثار يبين أن الزراعة وصلت إلى شمال إفريقيا بعد بدء وصولها إلى أوروبا بقليل . ويؤيده أيضاً أن لغات شمال إفريقيا هي لغات أخوات من الزمرة الإفريقية الآسيوية ومنها لغة قدماء المصريين ، واللغة البربرية ، واللغة العربية وأخواتها ، ولعل هذه اللغات جميعاً بنات لغة أم كان يتكلمها الذين بدؤوا الزراعة في بلاد الشام . وإذا نظرنا في موجة الهجرة الثالثة المنطلقة من بلاد العراقين ، وجدنا أنها انطلقت شرقاً لتغطي جنوب فارس وتمتد حتى الباكستان . ويؤيد هذا الرأي أن اللغة العيلامية التي كان يتكلمها سكان عربستان الأقدمون قريبة من اللغة الدراڤيدية التي تفرعت منها لغات جنوب الهند الحالية . فنظرية رنفرو تقول إذن إن أصحاب موجة الهجرة الثالثة حملوا معهم أم اللغات العيلامية والدراڤيدية حتى بلغوا بها الهند والباكستان . وفي وقت لاحق وصلت الموجة الأولى ، الآتية من ديار بكر ، وحاملة اللغات الهندية الأوروبية ، إلى الهند فازاحت المتكلمين باللغات الدراڤيدية ودفعتهم إلى الجنوب .

نظرية رنفرو هذه ترد إذن أصول بني الإنسان جميعاً ، إلا القلائل ، إلى ثلاث بقع من الأرض ، قريب بعضها من بعض ، هي ديار بكر ، بلاد الشام ، وبلاد العراقين ، التي انطلق منها الأجداد قبل نحو عشرة الآف سنة . ويؤيد هذا القول علماء من العاملين في علم اللسان ، وآخرون من العاملين في علم الحياة . فالأوائل يقولون إن أسرة اللغات الهندية الأوروبية ، وأسرة اللغات الإفريقية الآسيوية ، وأسرة اللغات الدراڤيدية ، تنتمي كلها إلى أسرة كبيرة يسمونها النُسْتراتية . وبعضُ علماء الحياة الذين درسوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مورثات البشر الحاليين ، بطرائق احصائية ، وجدوا تقارباً عظيماً بين مورثات الذين يتكلمون اليوم اللغات الهندية الأوروبية ، واللغات الإفريقية الآسيوية ، واللغات الدراقيدية ، واستنتجوا من ذلك أن أجداد هؤلاء وأؤلاء وأولئك أقرباء لصيقون .

إن نظرية رنفرو هذه تذكرنا بما توصل إليه علماء الحياة حديثاً من أن الإنسان الحالي ، المسمى بالإنسان الحكيم الحكيم ، بكل أعراقه وأجناسه وألوانه ، هو من سلالة امرأة واحدة عاشت في شرق افريقيا قبل مائتي ألف عام . وقد رجع الباحثون إلى الأصول بالأمهات لأنهم درسوا مورثات تنتقل من الأم فقط إلى من تلدهم . وذلك أن الدراسة تكون عندئذ أسهل ، وكشف شجرة الأسرة أهون ، لأن هذه المورثات تنتقل إلى المولود دون أن تكون قد اختلطت فيها مورثات الوالد بمورثات الوالدة بالتزاوج كما هو شأن المورثات الأخرى . وهكذا يكون الباحثون قد اكتشفوا أم الإنسان ، أو حواء كما سمتها الصحف السيارة . وبعض العاملين يعتقدون أنهم قد وجدوا أيضاً آدم ، ولكن قولهم غير مقبول حتى الآن .

إذا صحت هذه النظريات دلت على شيئين : شيء خاص ، وشيء عام . فأما الأول فهو أن كتلتي الأرض اللتين تحملان بلاد العرب ، واللتين تتباعدان منذ آلاف الآف السنين ، فيتسع من ابتعادهما البحر الأحمر الذي مافتئ ينشق منذئذ ، هما مهد الإنسان ، فعليهما ولد الإنسان القديم منذ ألف ألف عام ، وعليهما ولد الإنسان الجديد ، الإنسان الحكيم الحكيم ، منذ مائتي ألف عام ، ومنهما انطلق ، قبل عشرة آلاف عام ، أجداد الإنسان الذين يملؤون اليوم أكثر بقاع الأرض .

أما الشيء العام فهو أننا ، بني الإنسان جميعاً ، أخوة : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ [سورة الحجرات ، الآية ١٣] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net